

## الفصل التاسع عثمانُ الخليفةُ

### موقفٌ عظيمٌ:

وقفَ عثمانُ يتلقَّى البيعةَ منَ الناسِ مستشعِراً عَظَمَ المسؤوليةِ التي أصبحَ عليه أن يتحملها، فهو منذُ هذه اللحظةِ المسؤولُ عنَ أمورِ المسلمينَ كبيرها، وصغيرها، ما كان متصلاً بأحوالهم الداخلية، وما كان متصلاً بعلاقاتهم الخارجية، وهو رجلٌ عظيمُ الحياءِ، دائمُ الخوفِ من الله، حريصٌ على طاعته فيما هو مسؤولٌ عنه، وأيُّ مسؤوليةٍ هذه التي صارَ منذُ اليومِ مكلفاً بها؟

كانَ عثمانُ قد جاوزَ السبعينَ عاماً، ويعرفُ قيمةَ المسؤوليةِ، وقد عاشَ حياةً طويلةً كثيرةَ التجاربِ، ووقفَ الصحابيُّ الجليلُ يتلقَّى البيعةَ ثم اتجهَ إلى المنبرِ ليخطبَ في المسلمينَ كعادةِ كلِّ خليفةٍ جديدٍ يتولَّى حكمهم يخطبُ فيهم كي يوضحَ لهم منهجَه في الحكم، توجهَ عثمانُ وعلى محياهُ شيءٌ من حزنٍ لعله راجعٌ إلى عَظِيمِ خوفه من اللّهِ، وصعدَ درجاتِ المنبرِ وانتظر المسلمونَ أن يستمعوا إلى خطبةٍ بليغةٍ كما تعودوا منه، وكما حكى عنه أحدُ الصحابةِ فقال:

- « ما رأيتُ أحداً، كانَ إذا حَدَّثَ أتمَّ حديثاً ولا أحسنَ من عثمانَ، إلّا أنه كانَ رجلاً يهابُ الحديثَ ». وذلك لعظيم حياثه رضي الله عنه.

في هذا الموقف العظيم، وعثمانُ الخليفةُ فوقَ المنبرِ، والناسُ كلهم منتبهونٌ إليه، جاءت كلماته قليلة، فاكتفى بأن حذرَ الناسَ من الدنيا وغرورها، ورغبهم في الآخرة ونعيمها، وقال لهم إنهم في حاجةٍ إلى خليفةٍ يعملُ فيهم بحكمِ اللهِ أكثرَ من حاجتهم إلى خليفةٍ يكثرُ من الكلامِ.

## حُكْمُ عِثْمَانَ:

وبدأتُ صفحةٌ جديدةٌ من صفحاتِ جهادِ عثمانَ في سبيلِ رضا ربه عنه، فكانَ وهو الخليفةُ رجلاً غنياً لديه من المالِ الخاصِّ الكثيرُ، ولكنه ظلَّ كعادته ينفقُ هذا المالَ على الفقراءِ والمساكينِ، فصارَ يطعمُ الناسَ الطعامَ المخصصَ للإمارةِ، ويأكلُ هو الخُلُّ والزيتَ، وزادَ على ذلك بأن صارَ متقشفاً، لا ينفقُ على نفسه كما كانَ من قبلُ، ولعله أرادَ أن يحيا حياةَ الفقراءِ من المسلمينَ، كي يكونوا أمامَ عينيه دائماً فلا ينساهم أبداً.

ويقفُ عثمانُ بعدَ ذلك خطيباً في الناسِ وعليه ثوبٌ قيمتهُ «أربعةُ دراهمٍ أو خمسةٌ» فقط، وهو الذي كان يتصدقُ بالآلافِ وما زالَ، ولكنها نفسهُ المؤمنةُ تخرجُ من جميعِ متعِ الحياةِ الدنيا في سبيلِ رضا اللهِ عنها، وإعداداً لثوابِ الآخرةِ. وهو خيرٌ وأبقى.

## - عودة المرتدين عن الإسلام -

بينما انتشر العدل داخل البلاد الإسلامية، وانتشر الأمان بحكم عثمان وعلى نفس درب الرسول ﷺ، ونفس هدي الخلفتين السابقتين له، فاغتاظ بعض «الفرس والروم» الذين كانوا يحكمون الشعوب بالظلم والقهر قبل أن يعم البلاد نور الإسلام في عهد «أبي بكر» و«عمر»، وسوّلت لهم نفوسهم المريضة أن الفرصة قد سنحت لهم، فأشاعوا بين أتباعهم أن الخليفة القوي «عمر» قد مات، وأن باستطاعتهم اليوم الثورة والخروج عن حكم الإسلام، ولذلك قامت الفتن في مناطق مختلفة من الدولة الإسلامية قامت في «أذربيجان» و«أرمينية» وهجم الروم بأسطولهم البحري على «الإسكندرية» و«فلسطين» وخيّل لهؤلاء الظالمين أن الخليفة الجديد سوف ينشغل بكثرة المرتدين فلن يحسن التصرف معهم.

لم تكن الشعوب من أبناء تلك المناطق هم الثوار، وإنما كان هؤلاء بعض الظلمة الذين يريدون الاستيلاء على الحكم بالقوة كما كانوا من قبل، هؤلاء لم يتعلموا شيئاً، من فتح المسلمين لبلادهم، هؤلاء لم يتعرفوا على الحقيقة بعد، من أن شمس الإسلام التي تشرق على مكان صعب أن تغرب عنه، لأنها شمس الخير، والهدى، والرشاد، واغتر هؤلاء بكون الخليفة الجديد، عثمان قد تجاوز السبعين من عمره، ولم يعلموا أن الإنسان في الإسلام لا يقاس بعمره، ولكن بمقدار ما سكن في قلبه من عظيم إيمان وإسلام.

وكما فعل «أبوبكر الصديق» حينما تولى الخلافة بعد وفاة الرسول وكثراً في عهده المرتدون، فعل مثله عثمان لم يتمهل، ولم ينتظر، وإنما اتخذ على الفور القرار، اتخذ الموقف اللازم لإعادة هؤلاء جميعاً إلى الإسلام، هذا الموقف لم يكن - على عظم عددهم - إلا حربهم جميعاً.

### ٢- إعلان الحرب على المرتدين:

كان الخليفة عثمان الشديداً للإيمان موقفاً في قراراته، ذلك لأن الله كان دائماً معه، بل إن هناك أموراً كان «عمر بن الخطاب» الخليفة السابق يستعظمها ويتمهل قبل أن يفعلها، كان عثمان يقدم عليها، وذلك مثل إنزال جيوش المسلمين عبر سفن بحرية تسير في البحر، قرر عثمان هذا الأمر وأقدم عليه، فليس أمامه مفر من هذا الأمر، والله ناصرُهُ، بذلك قرر، وبدأ فأرسل جيشاً لتأديب المرتدين في «أذربيجان» و«أرمينية» اللتين خالفتا العهد السابق مع المسلمين، وأمر عثمان رضي الله عنه «الوليد بن عقبة» بالسير إليهما وتأديبهما، وبالفعل سار إليهم مع جيش من المسلمين فأدبهم، وجدد معهم «العهد».

### وثورة الروم:

وبينما كان «الوليد بن عقبة» عائداً بجيشه، وصلت إليهم الأخبار بأن «الروم» المهزومين يستعدون للاعتداء على «الشام»، وجاءه أمر الخليفة

عثمانَ بأن يجهزَ عشرة آلاف مقاتلٍ لحربِ الرومِ، والدفاعِ عن حدودِ الدولةِ الإسلاميةِ، ووضعَ الخليفةُ لإكمالِ هذا الجيشِ شرطاً غريباً إذ إنه اشترطَ أن يقودَ هذا الجيشَ رجلٌ «أمينٌ كريمٌ شجاعٌ»، إنه عثمانُ الخليفةُ الكريمُ يشترطُ الكرمَ فيمنَ يختاره، لماذا؟ لكي يستطيعَ أن يُنعمَ على الجيشِ ويجزلَ له العطاءَ، إنه عثمانُ الكريمُ، لا يتوقفُ كرمه عندَ ما تجودُ به يداؤه، ولكنه يختارُ الذين يقودونَ جيوشهُ بحيثُ يتمتعونَ بالكرمِ. وكان هذا الرجلُ الكريمُ السخيُّ هو «حبيبُ بنُ مسلمةَ الفهريِّ»، والتقى الجيشُ المسلمُ بجيشِ الرومِ، وأنعمَ اللهُ بنصره على المسلمين، فلم يتوقفَ القائدُ «حبيبٌ» أمامَ هزيمةِ الرومِ، بل راحَ ينفذُ أوامرَ الخليفةِ بالإغارةِ على داخلِ بلادِ «الرومِ» بغرضِ تأديبهم، وعدمِ الاكتفاءِ بصدِّ هجومهم فقط، وهكذا كانَ هجومهم على حدودِ الدولةِ الإسلاميةِ هزيمةً لهم، وفتحاً لبابِ الخلاصِ أمامَ الجماهيرِ المستعبدةِ في بلادهم التي لم يكن الإسلامُ قد دخلها من قبلُ، ودخلها في عهدِ الخليفةِ عثمانَ.

### الرومُ يهاجمونَ الإسكندريةَ:

لكنَّ «الرومَ» لم يتعلموا من الدرسِ الشديدِ الذي لاقوه في «الشامِ» إذ إنهم سرعانَ ما أغاروا على «الإسكندريةِ» وهجمَ أسطولهم الحربيُّ عليها، فأرسلَ عثمانُ أوامرَ إلى «عمرو بنِ العاصِ» حاكمِ مصرَ بتأديبِ المعتدين، وهناك أذاقهم الويلاتِ، واستطاعَ هزيمتهم وأنزلَ اللهُ نصره عليهم.

وكذلك كانت مقاطعة «الري» وهي طهران بإيران قد ثارت هي الأخرى فأرسل إليها عثمان جيشاً بقيادة «أبي موسى الأشعري» فأعادهم إلى ما كانوا عليه من اتفاقية مع المسلمين.

## استكمال فتح إفريقية

وكان رأي الخليفة السابق «عمر بن الخطاب» أن إفريقية - تونس اليوم - مغدورٌ بها، فهي بلادٌ كانت عبارةً عن أرضٍ غير ممهدةٍ خضعت لسنواتٍ طويلةٍ لغدر الرومٍ وحكمهم الظالمٍ لذلك رأى ألا يخاطر أحدٌ من المسلمين في عهده بفتحها، ولكن عثمان تروى<sup>(١)</sup> واستشار كبار الصحابة وقرر استكمال فتح إفريقية، وأرسل لذلك جيشاً كبيراً بقيادة «عبدالله بن سعد ابن أبي السرح» وحارب جيشه الروم الذين اجتمعوا لملاقاته في مائتي ألف مقاتلٍ وهزمهم وعاد الجيش الإسلامي بعددٍ لا يعدُّ من الأسرى ومن الغنائم ومن الأموال.

## بشارة الرسول ﷺ:

نام الرسول ﷺ ذات يومٍ في دار «عبادة بن الصامت» ونهض من نومه وهو يضحك، فسألته «أم حرام بنت ملحان» مم تضحك؟ فقال الرسول:

١- تروى: نظر في الأمر وتفكر.

– « ناسٌ من أمتي عَرَضُوا عَلَيَّ يَرْكَبُونَ ثَبَجَ هَذَا الْبَحْرِ مِثْلَ الْمَلُوكِ عَلَيَّ  
الْأَسْرَةَ ». .

فَقَالَتْ « أُم حِرَامٌ » : « ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ ». .

فَقَالَ لَهَا الرَّسُولُ ﷺ :

– « أَنْتِ مِنْهُمْ ». .

وَفِي عَهْدِ عُثْمَانَ تَحَقَّقَتْ بِشَارَةَ الرَّسُولِ إِذْ إِنَّ « عُثْمَانَ » رَأَى أَنَّ الْأَسْطُولَ  
الْبَحْرِيَّ لِلرُّومِ يَتَّخِذُ مِنْ جَزِيرَةِ « قَبْرَصَ » مَكَانًا يَنْطَلِقُ مِنْهُ وَيَعْتَدِي عَلَى  
الْمُسْلِمِينَ، وَلِأَنَّ الْهَجُومَ هُوَ أَفْضَلُ وَسِيلَةٌ لِلدَّفَاعِ، لِذَلِكَ قَرَّرَ أَنْ يَغْزُوا الْجَزِيرَةَ.  
وَتَدَارَسَ الْأَمْرَ مَعَ كِبَارِ الصَّحَابَةِ، وَمَعَ مُسْتَشَارِيهِ، ثُمَّ وَصَلَ إِلَى الْقَرَارِ.

وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي تَارِيخِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ تَوْلَدُ « الْبَحْرِيَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ »، وَأُذِنَ  
الْخَلِيفَةُ لِمُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ « بَغْزُوا « قَبْرَصَ » فَأَبْحَرَ إِلَيْهَا مِنَ الشَّامِ، وَأَمَدَهُ  
الْخَلِيفَةُ بِجَيْشٍ آخَرَ بِقِيَادَةِ « عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي السَّرْحِ »، وَأَطْبَقَتْ  
قَوَاتُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْجَزِيرَةِ فَاسْتَسَلَمَتْ، وَوَقَّعَ أَهْلُهَا « الصَّلْحَ » الَّذِي أَمَلَى  
شُرُوطَهُ « الْمُسْلِمُونَ ». .

وَتَحَقَّقَتْ بِشَارَةَ رَسُولِ اللَّهِ، وَشَهَدَتْ « أُم حِرَامُ بِنْتُ مَلْحَانَ » زَوْجُ  
« عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ » الْحَرْبَ، وَمَاتَتْ بَعْدَ مَعْرَكَةِ « قَبْرَصَ » وَدَفِنَتْ هُنَاكَ،  
وَسُمِّيَ قَبْرُهَا بِقَبْرِ الْمَرْأَةِ الصَّالِحَةِ وَمَا زَالَ مَعْرُوفًا بِهَذَا الْأَسْمِ.

## وغزوة ذات الصواري:

لم يقتنع «قسطنطين» امبراطور الروم بما لقيته جيوشه من هزائم على يد المسلمين، فجمع لهم جيوشاً لم يحشدها من قبل لكثرة عددها وسلاحها، وخرج بقواته محملة على خمسمائة سفينة هاجماً على بلاد المغرب ليقابل جيش المسلمين بقيادة «عبدالله بن سعد بن أبي السرح» فانصر الجيش الإسلامي عليهم بعد معركة رهيبة ثبتت دعائم الإسلام في تلك المنطقة.

وصار عمر عثمان سبعا وسبعين سنة، ورايته منتصرة في كل مكان وهو قائم في المدينة المنورة يتابع فتح الله عليه، ويتابع البناء الداخلي الذي يقوم به، فيوسع مسجد الرسول ﷺ، ويزيد في البناية والعمارة بما يناسب اتساع الدولة الإسلامية، على أن كل هذه الأعمال العظيمة ما كانت لتصل إلى عظمة هذا العمل الذي أقدم عليه عثمان ألا وهو جمع القرآن ونسخه.

## جمع القرآن الكريم ونسخه:

كانت آيات القرآن الكريم تنزل على الرسول ﷺ متفرقات، وكان جبريل يراجعها معه، ويأمره أن يضع بعضها في سور معينة، والأخرى في سور ثانية، وفي عهد الخليفة الأول «أبي بكر» قرر بمشورة من «عمر بن الخطاب» جمع القرآن الكريم من صدور الصحابة، أو من ألواح الكتابة في مصحف واحد مرتب السور والآيات، معروفة بدايته ونهايته، واحتفظ بهذا

المصحف «أبو بكر» ثم انتقل من بعده إلى «عمر». وخلال فترة حكم عثمان بلغت الفتوحات الإسلامية بلاداً كثيرة، حيث أتم الله الفتح ووصل المسلمون إلى آفاق واسعة وعم نصر الله، ومع هذا الفتح كان الإسلام يستقبل شعوباً مختلفة اللغات، وخاف الصحابة على «القرآن الكريم» من اختلاف اللغات؛ لذا قرّر عثمان أن يجمع القرآن على لغة واحدة، هي لغة قريش وكلف بهذه المهمة مجموعة من الصحابة المشهود لهم بالعلم وحسن العمل وكان منهم «زيد بن ثابت» أول من قام بجمع القرآن، ثم قرّر الخليفة أن ينسخ المصحف ويرسل به إلى عدد من الأقاليم، وهكذا قضى «عثمان» بحكمته على اختلاف كاد أن يظهر حول القرآن الكريم، وكان جمع المصحف من أعظم أعماله، إن لم يكن أعظمها على الإطلاق.